

# مِزْمَارُ اللَّيْلِ

قصّة بقلم محمد الزرقّ

المدينة الصغيرة يتناثرون في الطرقات ولم يكن ثمة شيء يميزهم عن الناس العاديين سوى حكم المهنة . وبدأت الاسواق الصغيرة القائمة في اول المدينة تعرض بضائعها من الفاكهة والخضروات . والنسوة المحجبات قد قبعن خلف جدران السوق المهترى يعرضن الوانسا من الرياحين والفلفل والورود .. ولقد عرج ناجي على الحارة القائمة في اطراف الميدان الصغير الذي ينتصب فيه قصر الامير شامخا مزهوا بحراسه وسائتيه وبوابته الكبرى والذي آل الى الحكومة القائمة .. وكان البيت الذي قصد اليه ناجي يقع في اول منعطف من الحارة بجوار بئر صغير مهجور قد عشتت الحمام والافاعي في جدرانه المشققة وزحف غبار الحياة وتقادمها يكسو تلك الجدران وكان البيت صغيرا مبنيا من الطوب الحارق ومكونا من طابق واحد واحدى غرفه يحتلها الحطب والحمار والمذود ، اما الفرقتان الاخيرتان فقد خصصت احدهما للام وزوجها والاخرى للصفار من الاولاد .. ثم مطبخ صغير ومرحاض ، ثم حظيرة على الجانب الاخر للبيت يملكها خال ناجي زوج شقيقة امه وهي عبارة عن بستان صغير مزروع بالضب وعلى اشجاره ثمة اشجار متناثرة كشجرة الجوز المنتصبه بساقها البيضاء في نهايته او شجرة الخوخ الصغيرة او اشجار التيسن المتناثرة في الزوايا او احواض الريحان الصغيرة عند مدخل الحظيرة .. وكانت مثل هذه التفاصيل الصغيرة لا تفارق خيال ناجي وهو يتذكر عهده بالروضة قبل عام .. وهو عندما يتذكر ابناء خاله فهو لا يتذكر منهم سواها .. أمة الرحمن .. بجسدها المتأود كالفضن عندما تتأود داخل البستان .. بعينيها المخضرتين كميني هرة سمينة .. بخديها الطافحين بالاشراق ابدا .. بأغصان الريحان عندما ترنكز بين جدائل شعرها الناعم والتي تظل خصاله على جبينها المكسو بغلالة السمار .. والعقبة الكبرى امام ناجي انه خجول .. فلقد كان يرتعش في العام الماضي ويتصب عرقا كلما حادثته أو كلمته ..

وعندما طرق ناجي الباب الصغير المتآكل كان ثمة صوت مخيف ولكن صوتا شاجبا أجاب ، وعندما فتح الباب وأطل ناجي على خاله أسرع يجيش بالبكاء .. ولقد بكوا معه دون ان يسألوا عن سر بكائه .. لقد كانوا يعرفون مقدما وازدادوا يقينا حين جاء يبكي .. غير انهم كفكفوا الدموع لحظة ليلتظروا تأكيدا « رسميا » من ناجي .. حتى سمعوه يقول متشجعا :

- يرحمها الله ..

وانطلق العويل صاخبا قويا ، ولحظ ناجي بطرف خفي وهو يبكي انزواء أمة الرحمن في زاوية الغرفة وانتعابها .. بينما كان اخوتها الصفار ينظرون الى العويل في ذهول وصمت وعندما حانت ساعة الرجولة تظاهر الخال بالتجدد والصبر أو تظاهر بالنظماهر وقال بجديّة وريانة :

- لا داعي للبكاء فان العويل يحرقها في قبرها ..

بينما استعاد ناجي رجولته ونظر الى أمة الرحمن والى خالته ثم ربت على كتف واحدة منوما وقال :

- لا داعي للبكاء فانه لا يجدي .. لقد ماتت .. و .. يرحمها الله ..

ولقد تنهدن ونظرن اليه ثم قلن بصوت واحد :

- الله يرحمها ويسكنها فسيح جناته ..

ومضت لحظات من الصمت الحقيقي ليس فيها سوى الآهات

شد الاب على يد ابنه وودعه عند باب المسجد على اثر كارثة مفاجئة المت بالاسرة عند منتصف الليل واجتاز ناجي باب شعوب وانساحت امامه الجبال المحيطة بصنعاء وقد غمر قممها الفجر وهو يطل بخيوطه الرمادية البيضاء يبدد أغذية الليل الكثيفة السوداء . ولقد مضى ناجي في طريقه غير المههد وعلى جانبه تلال صغيرة من الرمل وخلفها تبث اشجار الدوم المعجوز وشجيرات العنظل الميتة .. وثمة بقايا صمت خلفه الليل الطويل .. وكان الطريق لا يزال خلوا من المسافرين وان كان ضوء الفجر قد بدأ يغمر قيعان الارض الرملية ونسائم الفجر تلطم الوجه الطافح بالآلم على الام التي فاجأها الموت عند منتصف الليل بعد آتين وعذاب داما شهورا ..

وعندما كان ناجي يسير كان الكمد يقش وجهه الصغير ، وكانت قطرات الدمع تنساح على خديه بين الفينة والاخرى .. وعندما كان يفكر في امه فثمة شيء آخر كان يشغله .. فبرغم الشهور الطويلة التي مرت على قيام الثورة الا ان الحياة الكثيرة استمرت قنانتها على الملايين الحزينة ولم يكن ثمة فجر او ظلام ولا صباح ولا مساء بل تعتمت الحياة بالصباب الرمادي فغمر الجبل والقيعان والهضاب والتلال وتناثرت الذئاب ذات الجلود الرمادية عبر السفوح وأطل بريق عيونها على الاجساد التي لا تزال عارية تعاني الهزال والجوع والآلم .. لم يكن شيء قد تغير سوى الاسماء والواجهات وان تبدلت الوجوه في القصور .. وثمة اشياء عميقة المفزى قد حدثت اذ حدث اللقاء الاخوي عبر السنين مع النيل .. ومعناه ان وثيقة الاخوة قد سطرت بالدم المشترك .. دونما حاجة الى أحييل ومفاوضات الاوصياء وسكان القصور ..

ولقد كان ناجي يرمق الجبل بنظرة حب وهو يرى الخيام المتناثرة الصفراء يحضنها الجبل كأم رؤوم ، وكان يهمس لنفسه في شغف .. « صنعاء .. القاهرة .. ثم اللقاء برغم الاعوام المتباعدة » .. وكانت مثل هذه الخواطر الصغيرة تملأه بالزهو وتنسيه موت امه بعد عذابها الطويل . ولقد أطلت الشمس من وراء القمسة بقرصها الاصفر الواهي وبدأت أسراب الطيور تعبر السماء الزرقاء وبين اشجار الدوم والائل تناثرت الطيور ذات المناقير الطويلة والريش الملون .. وبدأ موكب اول مسافر يطل من بعيد وهو يمظي حمارة الصغير يحدث صوت الجرس الصغير الاصفر المعلق برقبته ريننا ريننا قد اعتاده الناس وألفته الطريق .

وبعد مسيرة صغيرة أطلت « نوبة النص » القائمة على اطراف الطريق بلونها الرمادي وتصميمها الاسطواني المستدير ونوافذها الصغيرة التي تطل من اعلاها فتبدو بين اشجار الائل الخضراء السامقة كائش ملففة بالسناثر لا تتبدى منها سوى عيون تبرق كعيون اليوم الناعق ..

ولقد بدأت الشمس تغمر قيعان الارض وتناثر المسافرون يملأون الطريق القفر وكثرت اجراس الحمير وتناثرت الدواب والجمال عبر الطريق تحمل المسافرين وباني الحطب والسمن وصناديق البرقوق .. وعلى البعد لمح ناجي المدينة الصغيرة التي لا تبعد عن صنعاء الا بضع ساعات تقطها الاقدام الحافية بسهولة .. وعندما أطل على الروضة الصغيرة كانت الحياة قد اكتسبت رنائتها العادية فثمة شخص صغير قد احتل ركنا مربعا صغيرا فوق سور حضيصة العنب الطويلة يطارد العصافير « بنبلته » الصغيرة .. وبدأ شحاذو

الحرقة وبقايا التشنجات والأيدي الناعمة عندما تمسح بقايا الدمع من مجاري الخدود . ولقد عاد ناجي يقص عليهم التفاصيل المعروفة بصوته المختنق :

- تفتت الكبد .. اني لاذكر يوم كانت تئن في منتصف الليل ولا تستريح الا اذا وضعت يدي على بطنها .. لقد كنت اقضي الساعات الطويلة ويدي على بطنها .. لم اكن ابالي بالارهاق .. بالتعب .. لقد كانت امي .. ومن الصعب ان يشهد المرء ان امه بين يدي عزرائيل .. من الصعب ذلك ..

وانداحت الاهات وعادت همسات التشنج تنائر من جديد غير ان ناجي عاود القول :

- لقد عزم ابي على ان يدرس لها ثلاث ليال على ايدي أشهر العلماء .. اما انا فلسوف اقرأ المصحف سبعين مرة على قبرها ..

وقال الخال العجوز والنسوة الحزاني

- بورك فيك من شاب بار ..

ثم تهتد الخال العجوز وقال في همس :

- صدق الشاعر

« واذا النية انشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع »

ثم قال الاب لامة الرحمن :

- اذهبي الى الحظيرة واقظفي ما طاب الى السلة الكبيرة ..

ثم اتجه الى صفاره قائلا :

- اما انتم فلن تتحملوا مشقة السفر في الشمس .. نحن

داخولون للعزاء ..

وووجه الاطفال ساكنين بينما ارتدى الخال العجوز مئزره الذي يغطي وسطه حتى ركبتيه والقميص الاعلى الاسود الداكن المتسخ والحزام العريض .. ونظر الى مرآة صغيرة مستديرة يحتفظ بها في جيبه دائما واخذ يتأمل وجهه العجوز .. ذقنه الكثيف السدي يغطي نصف وجهه الاسفل والتجاعيد التي تملأ جبينه وخديه ، واحكم لف الشال الاسود فوق رأسه ومضى نحو مخزن الحطب والمذود ليعد اللجام للحمار اليتيم .

وأسرع ناجي وقلبه الفياض الخافق يدفعه - متناسيا كسل شيء - نحو الحظيرة . وعندما اجتاز الباب الصغير لمح تحت ظلال سقف العنب - أمة الرحمن - وهي تحاول عبثا ان تهز شجرة الجوز الضخمة السامقة ، ولقد اقترب منها ساكنا حتى انها فوجئت به وهو يقول :

- افسحي لي .. لسوف أهزها بشدة ..

ولقد تحتت عنه في ذل وان كانت تزدرية في اعماقها . اما هو فرغم ان الخجل قد اعتراه الا انه أحس بشجاعة جياشمة تقمر قلبه وهو يستعرض رجولته امام انوثتها الذليلة وصمتها الخانع . واقترب من الشجرة وتطلع اليها ثم دفع يديه نحوها يهزها بكل قوته حتى اخذ يلهث ، وسقطت ثمرة صغيرة ابي ان يلتقطها او يدعو أمة الرحمن لالتقاطها فلقد كانت تقف خلفه ترمقه في ازراء .. صامتة في ذل .. وأحس ناجي بالخجل .. بالعجز .. بطعنة في الكبرياء الرجولي الجريح فترك الشجرة ومضى يتعثر في خجل تاركا المهمة لها .. وكان مخزن الحطب يبدو كمفارة عميقة السواد .. ككهف في جبل .. بلا نافذة .. بل ثقب يصل من خلاله وميض نور . ومع ذلك فقد استطاع ان يرى شبح خاله منتصبا بجوار الحمار الابيض المتلائي .. ولقد هم ناجي ان يقول لخاله شيئا عن أمة الرحمن .. غير انسه أدرك سوء العاقبة .. كان أقسى ما يتوقعه ناجي من خاله هو ان يصيح في وجهه :

- اقرب عني ايها الابن العاق .. أي مجنون يفكر في هذا يوم موت امه ..

ورغم ان الخال العجوز تجاهل وجود ناجي الا انه وقف بجانبه جامدا كالتمثال والخواطر تنداح في رأسه حزينة مظلمة .. ولقد انتهى اعداد كل شيء بعد دقائق .. واصبح الحمار

جاهزا امام البيت وقد ربطت على ظهره سلال الفاكهة التي قطفها الفتاة . وودع الجميع الاطفال الثلاثة الصغار وبدأ موكب العزاء يسير .. رجلا وامرأتان وحمار يتوسطهم وعلى ظهره سلتان صغيرتان .. وأدرك الخال العجوز ان بإمكان الحمار ان يحمل المرأتين .. زوجته وابنته على ان تحملا بدورهما سلال الفاكهة .. وهكذا تم الشكل النهائي لفاصلة العزاء وهي تسير في صمت .. تخترق ميدان الروضة ..

ولقد كانت الشمس ترسل أشعتها العمودية على التلال والارض الجافة غير المهدة .. وكانت انفساس ناجي تلهث وهو يسير وراء خاله ووراء الحمار .. وكان العرق يتصبب من جبينه غزيرا .. وئمة حديث كان يجري متقطعا بين الخال وزوجته ولم يكن ناجي بقادر على متابعتها .. كانت عيناه قد استقرتا على ظهر الحمار السدي يحملها .. أمة الرحمن وهي تهتز مع هزات الحمار الراكض بيسن الحجار .. غير انه سمعها تتحدث اباه قائلة :

- لسوف يأتي مسعود يا ابي غدا ..

ولم يكن ناجي قد سمع هذا الاسم بعد فاقتراب من خاله وسأل مستفسرا :

- من هو هذا .. ال مسعود؟ ..

فاجاب الاب بلا اكترات :

- الذي سيتزوج أمة الرحمن ..

بينما أعقبت الفتاة في غبطة :

- جندي مصري .

وووجه ناجي في ذهول وأطبق فمسه في دهشة وقال كأنه غير مصدق : - جندي ... مصري .

ورمقه الخال بنظرة شريرة وهو يعلم تماما ما يدور برأس الشاب وقال في خبث :

- نعم .. جندي مصري .. ماذا في هذا ؟ ..

وقال ناجي معانبا وهو يهم بالبكاء :

- وأنا؟؟ ..

وهزت لحظة صمت وقد استحال الموكب الجنائزي الى موكب حقيقي وأحس ناجي انه الميت حقا .. غير ان الخال قال له بخبث ايضا :

- هيا .. ألم تخبرنا أنك تتمنى الوحدة بيننا وبين مصر ؟

فتوقف ناجي عن المسير وألفيف ياكله وقال لخاله بحدة :

- ومالي اذن وللوحدة الان ؟ ..

فعاد الخال يقول مخففا من لهجته :

- هيا حتى لا نتأخر .. نحن فقط بدأنا نطق ما تمنينه يوما ..

ولقد أضرب ناجي عن المسير ومال نحو التل على جانب الطريق

وجلس ، بينما التفتت اليه أمة الرحمن وصوبت اليه نظرة تحد ..

نظرة ازدراء .. وهمس الخال بلا اكترات :

- سنمضي دونك ..

وأخذت عينا ناجي تتابعان الموكب بغيظ .. بينما كان الموكب

قد ابتعد .. ولقد دفن وجهه بين يديه عندما سمع صوت الزمار

ينبعث من نوبة النض القائمة بين اشجار الاثل وقام يمشي متخاذلا

والإلم المرير يملأ اعماقه غير مصدق ان كل شيء اصبح واقعا ..

وكان ينتهد طوال الطريق .. واخذ يقضي على انغام الزمار البعيد ..

كان يخترع الكلمات التي تعبر عن الله وعذابه فيشدها بها مترنما

طوال الطريق .. وعندما أطل على باب شعوب كف عن الفناء وان

ظل صوت الزمار قائما في اعماقه .. وعندما وصل الى البيت كان

الناس قد التفوا يشاركون في البكاء .. وكانت الجثة الميتة قد بدأ

غسلها وتكفينها .. وكان ناجي يتأمل كل شيء بذهول .. يرمق

أمة الرحمن وهي تبكي بعيدا .. في غيظ مكتوم .. ولقد تدفق ابناء

المدارس الصغار وعلت صيحاتهم أمام البيت .. وعندما حمل الرجال

الجنازة ظلت اصوات النساء وارتفع عويلهن الحارق المزعج ..

وارتفعت الاصوات الحادة تبكي .. بينما بدأ ابناء المدارس الحفلة يتقدمون الموكب الجنائزي وقد بدأوا يرددون انشودة الموت واصواتهم الحادة تتناثر في الفضاء وقد بدأ يظلم :

« لا اله الا الله .. »

« محمد رسول الله .. »

« علي ولي الله .. »

« فاطمة أمة الله .. »

« الحسين صفوة الله ... »

وسارت الجنازة خلف الاطفال وهم يتشدون .. واخذ الرجال الكبار يتناوبون الثواب في حمل اعمدة الجنازة بينما كان ناجي يسير في الخلف محطما ذاهلا .. لا زالت اصوات المزمار الحزين يتردد صداها في اعاقه .. مزج انشودة قلبه بانشودة الموتى التي يرددتها الاطفال وصار يردد اغنية الامل الميت بمفرده .. وكان ينظر الى الاشياء تتم امام عينيه في كآبة .. وفي شرود ..

وعندما كان التراب ينهال على حفرة امه كان هو يتابع قرص الشمس الاصفر الواهي وقد بدأ وراء الاكمة البعيدة يذوب وسط السحب الحمرة الفاتمة ..

ولقد اتجهوا جميعا نحو المسجد وقد اضيء خصيصا بمصابيح الغاز الكبيرة .. واخذ القائم على المسجد يرش وجوه المصلين « بماء الورد » .. بينما اخذ المقرئ يتلو آيات من الصحف يشاركه جميع المصلين .. اما ناجي فلقد ظل صوت المزمار الحزين هو الذي يرزل في اعماقه .. فلقد انسل من المسجد بصمت ولم يعد يقادر على المشاركة في تقبل العزاء .. واخذ يسير في ظلام صنعاء يجتاز الازقة والحارات الصامتة الكثيية متجها نحو الباب الذي خرج منه عند الفجر .. « باب الشعوب » .. واخذ يسير في الطريق القفر الموحش الكثيب وقد خلا من اصوات حوافر الحمير واجراسها .. واخذت اصوات الريح تهز اشجار الاثل .. بينما عاد يصغي وهو يسير لاصوات المزمار وهو ينبعث من بعيد .. وعندما وصل الى نوبة النص لم يعد يسمع صوتا واحدا .. كانت النوبة المستديرة جائمة بين اشجار الاثل ولم يعد ناجي يتبين شيئا .. ولا يسمع سوى صوت كلب يعوي من بعيد .. ولقدس أحس بالرهبة والخوف .. وارتعدت ثراثمه وسط الطريق القفر .. وعاد يتذكر ما كانت تخوفه به امه .. يوم كانت تحذره من « ام صياد » ومن « معوض الصابرين » .. ولقد كان يتوقع وسط ظلمة الخوف ان تبرز له « ام صياد » بشبحها الاسود وسط اغصان الاثل .. وخيل اليه فعلا انها قادمة حين حدق في الفضاء المظلم .. واخذت مفاصله ترتعد بينما بدأ جيئنه يقطر عرفا وهو يرى اشباحا سوداء تتحرك في سفح الجبل .. واخذت العظام تذوب هلعا وتوقف عن المسير واخذت يتلفت صوب كل جهة كالمجنون خشيية ان تدركه « ام صياد » من جهة ما على غير ما توقع .. ثم انداحت خواطر اللوم والاليم والتبرير من رأسه واخذ يلعن نفسه بصوت خفيض ويلعن يومه القاتم المشؤوم ويلعن طباعه العاقبة التي جرته الى التخلي عن آخر ايام امه .. يوم وداعها الى الابدية الاخرى .. واستسلم لاحزان قلبه واعترف لنفسه بالانانية ثم اخذ يقسم بالايمان المظلمة - وسط الظلمة الكثيفة واصوات حفيف الاشجار الانلية ترعد قلبه الصغير - ان يطيع اياه حتى الموت .. لن يرى المكان ثانية .. لن يخرج في الظلمة بمفرده .. لن يترك صنعاء ليلا .. لن يكون عاقا .. عاصيا .. ثم عاد يسير والخوف يحاصره ، غير انه ما كاد يسير خطوة حتى استرد أنفاسه وابتل حلقه بعد ان جف ، وأخذ يصغي بفرح طاغ الى اصوات المسافرين القادمين والى صوت اجراس البهائم القادمة . وما كادت قافلة المسافرين تقترب منه حتى صاح فيه صوت يعرفه ناجي جيدا :

– هه .. من ؟ .. ناجي ؟ .. ماذا تفعل هنا ؟ ..

وأدرته المفاجأة التي لم يحسبها حسابا ، فتلعثم وأطرق بجعل

يواري عرفه الظلام ..

فقالت أمة الرحمن التي كانت تمتطي الحمار مع امها .. قالت بخبث :

– دعه يا أبي .. فهو يوفي بوعده نحو امه .. يدرس لها المصحف للمرة التسعين !!

ووقف الحمار عن المسير ، وتوقفت القافلة عندما رآوه يتهاوى أمامهم ويسقط بسهولة نحو التراب ، ولم يجدوا بدا من حمله معهم الى الروضة .. ولكنهم اكتشفوا في الصباح انه مريض بالحمى .. وكانت أمة الرحمن اكثرهم حزنا عليه .. ومع الايام زاد مرضه خاصة حين رأى أمة الرحمن قابعة حزينة منتحبة منذ اليوم الذي أبلغ والدها بان مسعود المصري قد مات !!

ولقد اقترب الخال من ناجي يوما وهمس ضاحكا :

– رحمه الله .. مسعود .. لقد تعارف بابتني يوم كانت تحمل للمعسكر صفائح الماء في سفح الجبل .. جاء ليحارب من اجلنا .. ودفن في جبل صالح من اجلنا .. ولهذا قبلته زوجا لابنتي .. وانتفض ناجي من فراشه خائرا وصاح بصوت حاد محموم :

– اني ذاهب ..

فصمت الخال برهة ثم سألته :

– الى اين ؟ ..

فقال ناجي بحماس اكثر :

– الى المعسكر .. على شرط واحد ..

فقال الخال مبتسما :

– على العين والرحب اذا كنت ستحارب حقا ..

فاجاب ناجي بسرعة :

– ان تقبلني زوجا لامة الرحمن .

وكانت أمة الرحمن تراقب الموقف من بعيد .. وتبتسم على الرريض المحموم ..

ولقد زال الجفاء بين ناجي وابيه يوم التقيا لأول مرة في الروضة وعاد ناجي من المعسكر مزهوا بشباب الحرب الصفراء ..

حارة الطواشي - صنعاء محمد الزرقه

في الاسواق :

## قضايا الشعر المعاصر

بقلم

نازك الملائكة

أوفى دراسة

وأعمقها في مشكلات الشعر

العربي الحديث

منشورات دار « الآداب » الثمن ٥٠٠ فرشا لبنانيا